منهج التأليف عند العرب

د. محمد التونجي

يفخر العرب، منذ القديم، بقريحتهم الفياضة التي تفوق ببلاغتها الأمم جمعاء. تماماً كما يفخر الاغريق بفنهم النحتي، والصينيون بفنهم الرسمي والنقشي. ولئن ندر وجود القرطاس لدى العرب في العصر الجاهلي، فقد كانت القريحة والذاكرة والرواية تُوري الذهن، وتوقد الحافظة، وتسهِّل النقل.

ولقد استمرت عملية الروابة لدى العرب منذ الجاهلية حتى نهاية القرن الهجري الأول. وبعد ذلك جاء دور جمع هذه الروايات، وتدوينْ ما في تلك القرائح. وتتالى التأليف على أساس جمع الروايات وتدوينها حتى مطلع القرن الهجري الثالث. وهكذا عُدت مرحلة الرواية العربية وتدوينها أساس منهج التأليف عند العرب. واستمر هذا الأساس في الكتب العربية على الرغم من بلوغهم أسمى المراحل في التأليف والتبويب.

ومع أن عملية التأليف على أساس تدوين الأخبار والروايات، استمرت قرناً ونيِّفاً بعد الهجرة فإن الأدباء سرعان ما جنحوا إلى التخصص والمنهجية الدقيقة. فغدونا نجد منذ بواكير مرحلة التأليف من خص كتاباته في موضوع محدد مثل كتب القرآن والحديث، ومثل كتاب «المطر» لأبي زيد الأنصاري وكتابي «الابل» و«أسماء الوحوش وصفاتها» للأصمعي و«النوادر في اللغة» لأبي زيد الأنصاري... وكتاب «المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام» لمحمد بن حبيب.

والذي نلاحظه من هذه الأسماء أن التخصص لم يكن في الموضوع العام، بل في الموضوعات الدقيقة جداً، وهي تشبه الى حد كبير موضوعات العرب الحديثة في أدق بحوثهم العلمية الرصينة.

وسرعان ما نجد الأديب يشبُّ عن الطور، ويتطور بغتة من الحبْو الى العدْو، فتتحول الكتابات من

وريقات أدبية ورسائل لغوية إلى كتب رصينة متكاملة، بل إلى مجلدات متعددة. ولم نلحظ القراء يستنكرون هذا التوسع السريع في التأليف. بل وجدناهم يُقبلون على مطالعة هذه الكتب، وبيان آرائهم في حلقات التدريس، وفي كتب النقد. وهكذا برز موضوع النقد العام، بعد أن كان يميل بريشته إلى صقل الشعر. ويعد ابن سلام في « طبقات فحول الشعراء » من أبرز نقاد العرب.

وغدونا منذ مطالع القرن الثالث نلحظ بروز شخصيات أدبية تنفرد عن غيرها في مناهجها التأليفية. فشخصية الجاحظ النادرة تختلف في منهجها عن ابن قتيبة، ويختلف الاثنان عن سابقهما ابن المقفع. بل إن بعض هؤلاء المؤلفين يختلفون منهجياً بين كتاب وكتاب. فالجاحظ في « البيان والتبيين » يختلف تماماً عنه في « الحيوان ». وهو في الاثنين غيره في « البخلاء ». وكذا الأمر مع ابن قتيبة في كتبه.

والجدير بالملاحظة الدقيقة أن المؤلف العربي كان يستخدم النواحي النفسية المؤثرة في القراء. وكأنه أحس بالدور النفسي الذي يلعبه في الشهرة وفي القبول والميل. فالناحية النفسية العروبية في « البيان والتبيين » جعلت كثيرا من القراء يميلون إلى الجاحظ، ويشجعونه ويؤيدونه ويؤلفون على غراره. كما حدتْ ببعضهم من الشعوبيين إلى مناوأته ومعاداته. وشبيه بهذه المؤثرات النفسية ما نجده في كتابه « البخلاء ».

بل إننا نميل إلى أن تعمد الأدباء ـ وعلى رأسهم الجاحظ ـ في استخدامهم « الاستطراد » إنما ليُبعدوا عن القراء السآمة. ونحسب أن الاستطراد الذي اتبعه المبرد كان محدوداً. ولم يمل اليه المؤلفون إلا بعد أن أطالوا في مؤلفاتهم، وقدّروا نفسيّة القراء.

وإن نظرنا في كتب الأدب المؤلفة في القرن الثالث تأكد لنا أن المؤلفين قفزوا قفزات عريضة بلغوا بها قمة التأليف العربي تقريباً. وغدا هذا القرن نواة في كثير من القضايا التأليفية. ففيه تركز التأليف وظهرت الكتب الرصينة، وبرز موضوع التخصص الدقيق كمؤلفات ابن قتيبة (ت 276)، و« بديع » ابن المعتز (ت 296)، وبرزت المؤلفات الضخمة كمؤلفات الجاحظ، وتنبه المؤلفون إلى أهمية تأليف كتب عن الاعلام. ولا ننسى أن لعلم القرآن والحديث فضلاً في دفع القلم إلى هذا الميدان، فقد برزت كتب الطبقات.. أما في مجال الأدب فكان طبقات ابن سلام (ت 231)، و« الورقة » لابن الجراح، و« البارع » لابن المنجم (ت 288)، و« طبقات الشعراء لابن المعتز، و« الشعر والشعراء » لابن قتيبة (ت 276).

ولا يعني تركيزنا على القرن الثالث أن العرب لم يجددوا في مناهجهم التأليفية بعد ذلك. إنما نعني أن أساس التأليف العربي نشأ قوياً جداً. فمن البديهي أن يستمر التأليف ويتوسع ويتضخم مطمئناً ما دام أساسه متينا. وإذا كان ما ذكرنا قبلُ بعض صفات التأليف في القرن الثالث فإن صفات القرن الرابع امتازت ببروز الشخصية النقدية وبتوسع الفكر. ولهذا برز « نقد الشعر » لقدامة، و« الموازنة » للآمدي، و« الصناعتين » للعسكري.

ويتبع هذا اللون من التأليف من الناحية المنهجية، نوع من الكتب يعمد فيها أصحابها إلى تثقيف القارىء. فكثرت المؤلفات الجامعة لعدد من الفصول الملونة بأفانين الثقافة مثل «عيون الأخبار» لابن قتيبة، و«الكامل» للمبرد، و«الأمالي» لأبي علي القالي (356).

ولما كان همّ المؤلف في تلك الحقبة تنويع الفصول وتلوين الأطباق الثقافية فإن مسألة الاستطراد قلّت بل نذرت. ونحسب أن عملية الاستطراد مرحلة أولى لموضوع الفصول التي اكتملت في القرن الرابع مثل كتاب «العقد» لابن عبد ربه.

وتركزت في هذا القرن (الرابع) أيضاً عملية تأليف كتب التراجم والأعلام. فابن الجراح لم ينظم أعلامه في «الورقة» على أساس معين، وكذلك غيره من المؤلفين في ميادين التراجم. حتى إذا جاء القرن الرابع بدأ تدوين الأعلام ترتيباً فنياً، بناء على:

1 ـ الترتيب الالفبائي مثل «المؤتلف والمختلف» للآمدي (ت 370)، و«معجم الشعراء» للمرزباني (ت 384).

2 ـ الترتيب بحسب العصور والمناطق: نحن لا نريد أن نغمط، في هذا الميدان، حق ابن سلام، فإنه سبق عصره في ترتيب الأعلام على أساس الطبقات والبيئات، ولكننا نفضل ان يعد في كتب النقد، فطبقاته رتبت بحسب الذوق والنقد، وليس على أساس التراجم. وزعيم الترتيب بحسب العصور والمناطق هو الثعالبي في «يتيمة الدهر». فقد خص كل فصل بمنطقة معينة، ورتبهم ضمن الفصل الواحد على أساس المكانة؛ فذوو المقام أولاً، يتلوهم الشعراء الأعلام، ويختم فصله بالشعراء المقلين أو المجهولين.

وإذا امتاز التأليف في القرن الثالث (وما قبله) بالاتجاه اللغوي فإن القرن الرابع استمر على الاتجاه اللغوي، إنما على أساس المصطلحات، فقد تنبه بعض المؤلفين إلى نقص مهم في ميدان التأليف على أسس المصطلحات. فعمدوا إلى التأليف فيه. وقد أفادت هذه الموضوعات المؤلفين أكثر مما أفادت المطالعين. ومن أبرز هذه المؤلفات: «الفهرست» للنديم (ت 385)، و«مفاتيح العلوم» للخوارزمي (ت 387). بالإضافة الى البراعة في ميادين التأليف الأدبي مما قد ذكر قبل.

وهكذا نلاحظ أن القرن الرابع لم يكن فرعاً للقرن الثالث وحسب، بل كان غرساً للقرون التالية في التأليف. فقد استمر المؤلفون فيما بعد في المصطلحات، حتى رأينا الجرجاني (ت 816) في كتابه النادر «التعريفات»، يبلغ مرحلة دقيقة في تعريف المصطلح؛ فقد رتبه على حروف الهجاء، وأدخل فيه مصطلحات المحدثين والصرفيين والمتكلمين والفقهاء والنحاة والمفسرين. واعتمد على تكثيف مادته واختصارها وتقديمها مجدية للمطالع.

وكانت «يتيمة الدهر»، في ميدان التراجم، الحلقة الأولى التي تبعها عدد كبير من المؤلفين كالباخرزي في «دمية القصر» (ت 467)، والبيهقي (ت 565) في «وشاح الدمية»... وتوسع المجال أكثر فجاءت تراجم الأعيان التي افتتحها ابن خلكان (ت 681)، ومازال التأليف جارياً على خطته حتى اليوم. واشتهرت هذه الفكرة كثيراً، حتى انتقل تأثيرها إلى المغرب والأندلس.

فما كاد القرن الرابع يُختم حتى استوعب الكتّاب أغلب الموضوعات، واستوفى الأدباء أفضل المناهج، وعالجوا أبرز العلوم. وإذا شئنا عددنا القرن الرابع عصر المناهج الدقيقة وقمة التأليف. ولم يكد أحد يأتي بجديد رغم استمرار التأليف ومحافظته على مركزه. وعدوا مؤلفي القرن الرابع وبعض مؤلفي القرن الثالث نواة الانتاج وقدوة المخطط الدقيق. فمالوا الى تقليده، وعكفوا على انتهاج مناهجه. وهذا يعني أن الإبداع بدأ يتوقف، والتوليد يتحنط في تأليف العلوم وقواعد التأليف، لأنهم لمسوا أن الكتاب أخذ مكانته المتكاملة في التأليف، فساروا عليه مطمئنين.

ويقول أستاذنا أمجد الطرابلسي: «... بل إن الموسوعات الأدبية الضخمة التي ظهرت في عصور الانحطاط مثل صبح الأعشي للقلقشندي ونهاية الأرب للنويري، ليست سوى امتداد ضخم لحركة تأليف دواوين الأدب حسب الطريقة التي وصفناها».

رأي الغرب في منهج العرب:

وهكذا تفوّق العرب في مناهج التأليف، وتفوقوا بها على سائر الأمم. وعُدوا قدوة للأمم الأخرى في عصور ازدهارهم ويقظتهم. وإذا كان الاغريق أساتذة الرومان فإن العرب كانوا أساتذة الغرب كله؛ فهم الذين اعترفوا بسطوع شمس العرب عليهم. فأقبل كثير منهم على ترجمة كتب العرب، وأقدم بعضهم على سرقة بعض المؤلفات، ونسبوها إلى أنفسهم. بينما اعترف آخرون بإبداع العرب في حقل التأليف. فرأيناهم يدرسون مناهج العرب، ويتبنونها، ويُدخلونها في مناهجهم الحديثة.

فالدوميلي الايتالي تحدث عن مناهج العرب العلمية في أثناء حديثه عن المعتزلة وعن ابن الهيثم. وألف المستشرق روزنتال «مناهج العرب المسلمين في البحث العلمي». وعالج جون فوك في كتابه «العربية» مناهج عدد من الأدباء العرب وعلى رأسهم الجاحظ. كما أشاد بعض المستشرقين الآخرين بالحضارة الإسلامية، وتأثيرها في العالم. وكتبوا عن ذلك كثيراً، منهم: بادو عن «دور العرب في الحضارة الإسلامية»، وزويتلر في كتاباته عن الجاحظ، ومارتن عن الكندي...

وانبرى عدد من المثقفين العرب المحدثين يعرفون بقواعد العرب القدماء في مناهج التأليف ومبادئهم العلمية كعلي سامي النشار في «مناهج البحث عند مفكري الإسلام». ونهد آخرون الى عقد مقارنات بين مناهج العرب ومناهج الغرب كعثمان موافي في «منهج النقد التاريخي عند المسلمين والمنهج الأوروبي».